رواية من روايات الفروسية معظمها لاينطوي على قيمة فنية ، نستطيع أن نثمن النضال الذي خاضه سرفانتس ضد هذا النوع من الأدب . لكننا نعرف أن سرفانتس بعد أن (يصفي الحساب) مع أدب الفرسان في الفصل السادس من الجزء الأول من روايته بتدمير مكتبة دون كيشوت ويقود بطله المجنون الى الاحتكاك بالواقع القاسي المحيط به ، لايحكم بصرامة على ذلك البطل فحسب ، بل يحكم ايضا على الظلم الاجتماعي المحيط به . ومع تطور الحدث يزداد تعقد السخرية فتتجاوز حدود الكتابة الفنية ويصبح طابع التعرية فيها أشد وضوحا . وتظل هذه السخرية تؤدي دور حلقة الوصل الضرورية من أجل المحافظة على وحدة الحدث . غير أن سرفانتس يضطر فيما بعد الى التمويه لأن اتجاه الرواية الناقد يكاد يوقعه في صدام مع محاكم التفتيش ، فيلجأ الى اختلاق شخصية مؤرخ عربي من مانشا هو السيد أحمد بن هاله ويضع على لسانه بعض احكامه الانتقادية . لقد كان سرفانتس أبعد نظرا من بطله دون كيشوت الذي دفع غاليا ثمن غلطته حين تخيل أن الفروسية الجوالة يمكن أن تتلاءم مع جميع اشكال المجتمع . ان سرفانتس الذي خبر بنفسه التناقض بين الحلم بالعصر الذهبي وبين الواقع الاسباني ولم ينس أن فيليب الثاني أقام في عام ١٥٥٩ أعمال حرق جماعي علني « للهراقطة » لامثيل لها ، كان مضطرا للزوم جانب الحذر في كتاباته .

وقد تجلت عبقرية سرفانتس في عملية انتقاء بطليه ذاتها ، في انتقاء الفارس وتابعه . فليس من قبيل العبث أن اختار سرفانتس أولهما من أوساط الاقطاعيين الأسبان المفلسين الذين ينتمي اليهم الكاتب نفسه . واختار الثاني من أوساط الفلاحين الذين لاأرض لهم والذين كانوا يشكلون الكتلة الأساسية من سكان اسبانيا آنذاك . ان صورتي دون كيشوت وسانشو بانسا اللتين تحملان عبئا اجتماعيا ضخما كانتا بالنسبة الى سرفانتس امكانات هائلة العمق والاتساع . فعلى شفتي الفارس ، ومن خلال قناع جنونه ، أطلق سرفانتس كل دروس السمو الأخلاقي والحكمة السياسية والنزاهة التي أراد قولها لمعاصريه . وضمن سرفانتس تلك الدروس خبرته الحياتية الفنية وكنوز ثقافته الروحية التي جمعت جمعاً منسجما بين الماضي والتراث القومي الاسباني وبين أفضل منجزات النهضة الايطالية . والتي تعايشت فيها ثمار الفلسفة الشرقية والعربية مع أفكار عصر النهضة تعايشا رائع الانسجام .

ونطق سانشو بانسا بالحكمة الشعبية المتكدسة عبر القرون والتي وجدت أغنى تعبير لها في الفولكلور الاسباني الذي يشكل أساسا هاما من أسس الرواية ، وقد تجلت هذه الحكمة الشعبية بالشك الفلاحي المعافى المنجذب ابدا نحو الأرض « وهذا الميل نحو الأرض يفسر لنا أحلام سانشو بانسا المستمرة بامتلاك الجزيرة » .